رسالة الامر بالمعروف
أو نظام الحسبة فى الإسلام

بقلم الأستاذ
طه عبد الباقى سرور

على القاعدة الاسلامية الكبرى ، التى تقرر أن التشريع ينبثق من حاجات المجتمع ، ويدور مع مصالح الناس . أنشأ المسلمون نظام الحسبة ووظائف المحتسبين .

فقد أدركوا — منذ عهد عمر بن الخطاب . وهو العصر الذى اتسعت فيه حدود الأمة الإسلامية وترامت أطرافها وتشابكت مصالحها — أن الإجراءات القانونية الطويلة المدى ، قد يقعد بها البطء والتعقيد عن الوفاء بالمصالح العاجلة التى تعرض للناس فيما يضطربون فيه من شئون حياتهم ، والتى تتطلب تنفيذا سريعا وعلاجاً حاسماً ، فسدوا هذا النقص بنظام الحسبة المتحرك الخاطف .

وهو نظام تميز به الحكم الإسلامى على سائر الأنظمة العالمية فى دقته وكفاءته ونبل أغراضه ومقاصده ، وشموله وإحاطته . فهو يسير مع الناس أينما ساروا ، متكفلا بحمايتهم وراحتهم فى كافة الميادين العمرانية والتجارية والخلقية والاجتماعية .

وبذلك تحرر المسلمون منذ أربعة عشر قرنا من « الروتين » البطىء الذى تشكو منه الديموقراطيات العالمية ، ويعتبره رجال الفكر والإصلاح النقطة السوداء فى جبينها المشرق .

يقول ابن القيم فى كتابه « الطرق الحكمية » .

« وأما الحكم بين الناس فيما لا يتوقف على الدعوى فهو المسمى بالحسبة ، والمتولى له والى الحسبة . وقد جرت العادة بإفراد هذا النوع بولاية خاصة ومنحه سلطات واسعة ليكون سريع الحركة حاسم التنفيذ » .

فهو قوة ضاربة على أيدى المنكر أينما وجد وحيثما كان ، لايعوقه « الروتين » البليد ، ولا يغل يده الإجراء البطىء ، بل هو أشبه بقوة الإطفاء السريعة ، يهرع إلى كل مكان وجد فيه الشرر والحريق ، ليزيل الشر ويطفىء اللهب بوسائل خاطفة ناجحة .

قوة تمديد القانون الباطشة المتحركة إلى كل حركة أو عمل يهدد حياة الجماهير ومصالحهم وأخلاقهم وأقواتهم يبتش الأسواق ويراقب الموازين والأسعار ويفاجىء التجار المحتكرين ، وينقب عن الأقوات المحبوسة والأرزاق المخزونة ، ويرقب حركات المرور ونظام الطرقات العامة ونظافتها وسلامتها ، والمبانى وهندستها وتناسقها ، والآداب العامة يحميها من المجون والتبذل ، ويشرف على المساجد ومايلقى فيها من دروس ، وما يقام فيها من صلوات ، ودور التعليم وما يجب لها من احترام ونظام ، ومقدمات الدين لاتستباح مكانتها ، من فطر فى أو تعاط لخمر أو مزاولة لقمار أو أكل لأموال الناس بالربا .

جاء فى كتاب «النظم الإسلامية :

« وكان للمحتسب نواب يطوفون بالأسواق يفتشون الفنادق العامة ويشرفون على السقائين للتحقق من تغطيهم القرب ولبسهم السراويل ، كما كان يحول دون بروز الحوانيت حتى لاتعوق نظام المرور ، وكان له أن يمنع الناس من حمل مازاد عن طاقتهم أو تحميل الحيوانات أو السفن أكثر مما ينبغى ، وكان له أن يشرف على نظام الشوارع والأزقة ، ويحكم بهدم المبانى المتداعية وإزالة أنقاضها » وذكر المقريزى :

« أن المحتسب ضبط فى أحد أسواق القاهرة فى اليوم السادس من شهر رمضان سنة ٧٤٣ هـ رجلا يدعى محمد بن خلف عنده مخزن فيه حمام وزرازير بلغت عدتها أربعة وثلاثين ألفاً يحجبها عن السوق ، فشهر به وأدبه » .

وبمعنى أدق فقد جمع المحتسب بين مهمات النيابة العمومية ، ووزارات الشئون والصحة والتموين والبلدية ، وبوليس الآداب والمرور ، فى كل الأحوال السريعة الحاسمة التى لاتحتمل أرجاءاً أو تأخيراً .

ثم امتد نظام الحسبة إلى أخطر أمر فى حياة الأمة الإسلامية ، وهو القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وضم نظام الحسبة إليه صفوة العقول المؤمنة المستنيرة حتى بلغوا فى القاهرة والأقاليم — على رواية المقريزى — أربعة آلاف .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وظيفة جليلة الخطر بعيدة الأثر ، فى الأفق الإسلامى ، وثيقة الصلة بالعقيدة ومثلها العليا وآدابها وشرائعها .

فمن النهى عن المنكر مثلا ، ما كان يقوم به المحتسب ورجاله من محاربة مستنيرة للبدع والخرفات والعادات الجاهلية وشبه الجاهلية ، التى تنتشر دائما فى الأوساط العامية ، فكانوا يمنعون سير الجنازات المولولة النادبة ، والإقامة فى المقابر ، وما يتبعها من مضار ، وحفلات الزار . والرمل والودع وما إلى الرمل والودع من مستلهمات الغيب ومستكشفات الأقدار ، وما يحدث فى الموالد وحول الأضرحة من طبول وزمور ومهازل ، إلى أمثال هذه العادات وأشباهها مما يضاد التوحيد الإسلامى ، ويتنافر مع الحياة الصحيحة المهذبة الصاعدة .

ومن الأمر بالمعروف ، تبصير الناس بأمور دينهم ، والجهر بكلمة الحق ومقاومة الظلم والظالمين ، والإرشاد إلى سبيل الخير والاعانة عليه ، والأخذ بسبل الاصلاح ودوافع القوة . وما يتبع ذلك وما يماثله مما يلقى ضوءاً مرشداً ينير للناس سبلهم ، ويهديهم صراطاً مستقيما .

وتلك الوظيفة فريضة دينية إسلامية مقدسة تحمى قلب الأمة من الإمراض والعلل التى تفتك بالشعوب ، وتبعث الذلة والكرامة فى الصدور ، وتقمع العصاة كما تردع الظالمين :

ولقد ألحقها نظام الحسبة بأفق الحكم الاسلامى ليضفى عليها الجلال والمهابة ، ويمدها بالسلطان والقوة اللازمين للضرب على أيدى الافساد والمروق والانحلال . ولحن الاسلام مبين فى أن المجتمع إذا لم يأخذ على أيدى الفساق والعصاة والمفسدين والطغاة ، فسد وانتشرت فيه مكروبات الانحلال والضعف ، وتنزل عليه غضب الله .

فكما تحمى الاجراءات الصحية صحة الأمم وأبدان بنيها من الأمراض والأوبئة ، كذلك على الأمة أن تنهض بالاجراءات التى تحميها من أمراض

النفوس وأوبئة القلوب ، وكما يقوم الحجر الصحى حول كل مرض يهدد بالعدوى ، بعزل المصابين به وبإقامة السدود والقيود حوله ، كذلك على المجتمع أن يحمى نفسه من الأمراض الخلقية والاجتماعية ، بإرشاد المصاب ونصحه وتحذيره ؛ فإذا لم يرتدع وجبت مقاطعته حتى يشعر بغربته وشذوذه وسقوطه ، وهذا الإجراء الحاسم هو السبيل الأقوم لحماية المجتمعات ، وإجبار الفرد المريض على التوبة والرجوع ، وبذلك تبقى الأمة سليمة القلب والوجدان ، صحيحة العقل والإيمان .

روى أبو داود عن ابن مسعود قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن أول ما دخل النقص فى بنى إسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل . فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك . ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ؛ فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك الله قلوب بعضهم ببعض . ثم قرأ :

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ، ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ، أن سخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ، ما اتخذوهم أولياء ، ولكنّ كثيراً منهم فاسقون » . . .

ثم قال : « كلا . . . والله لتأمُرُنّ بالمعروف ولتَنْهُنّ عن المنكر ولتأخذُنّ على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا » أى تقهرونه على الحق قهرا .

وروى الترمذى عن ابن مسعود قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لما وقعت بنو إسرائيل نهاهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . فجلس رسول الله — وكان متكئا — فقال : لا . . . والذى نفسى بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا . . . » .

وروى ابن ماجه وابن حبان عن عائشة قالت :

خطب رسول الله فقال :

« يا أيها الناس ، إن الله يقول : مروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوا فلا أجيب لكم ، وتسألونى فلا أعطيكم ، وتستنصرونى فلا أنصركم . . . » .

وقد يبدو هذا اللحن غريباً أو عجيباً علينا اليوم ، وقد غرقنا إلى الأذقان فى حياة الجاهلية ، وقد سحرتنا أوروبا بتقاليدها وعاداتها ونهجها فى الحياة . . . فما عدنا نرى المنكر منكرا ، ولا الذنب الغليظ معصية وإثما ؛ بل لعل بعض الذنوب اليوم مما يفاخر به الناس ، وبعض المنكر مما تتزين به الهامات .

ولكن يوم تعود الأمة الإسلامية ، ستكون اللبنة الأولى فى صرحها ، هو أن يتميز الخبيث من الطيب ، وينفر الطيب من الخبيث ، كما ينفر السليم من العدوى القاتلة . . . يوم يقوم فى الأمة رجال يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . . يوم لا يغض الحاكمون أبصارهم عن المجاهرين بالإثم ، المفاخرين بمحاربتهم لما يحب الله ويرضى .